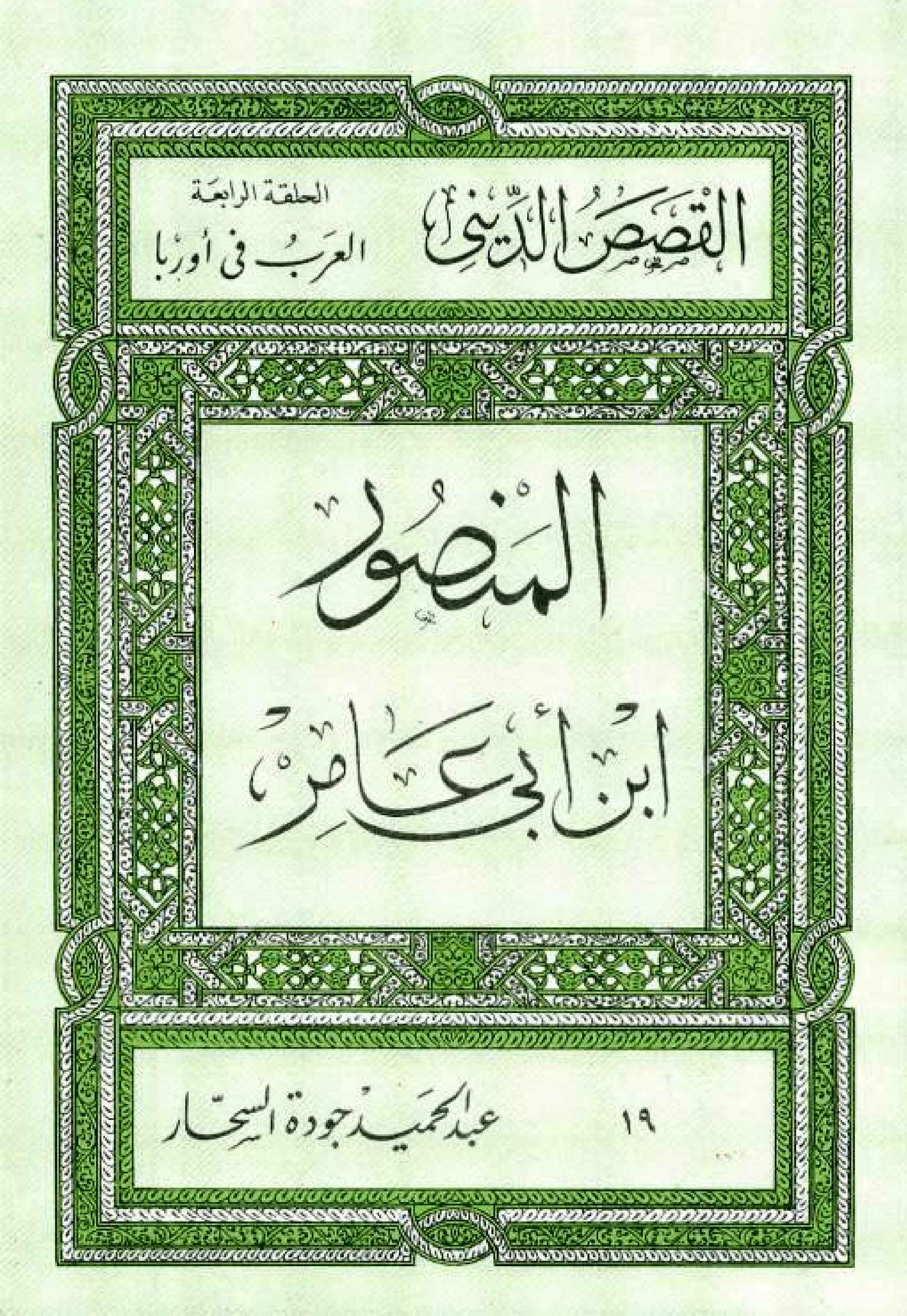

القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
المنصور
ابن أبي عامر
عبد الحميد جودة السحار
١٩

# ١

رأى ابنُ أبى عامرٍ تغَلْغُل نُفوذِ الصَّقالِبةِ فى القَصر ، وخَطَرَهم الدَّاهم ، فعزَمَ على أن يستأصِلَهم. كان فائقٌ وجُؤذَرٌ الخَصِيَّانِ رئيسَى حَرسِ الحريم ، وصاحِبَى نُفوذٍ كبيرٍ فى القصر ، وكانا زعيمَى الصَّقالبة ، فلو أنَّه قَضى عليهِما ، لقَضى على قُوَّةٍ تُهَدِّد سلطانَه ، واستحواذَه على السُّلطةِ والسلطان .

وذهب فائقٌ إلى بَيَّاسة ، وقابَل أميرَها دُرِّى ، ليُؤلِّبَه على الدَّولة ، وعَلِمَ ابنُ أبى عامرٍ بذلك ، فذهبَ إلى المُصحَفِىّ رئيسِ الوزراء ، وراحَ يُحرِّضُه عليه ، ولكنَّ المُصحَفِىَّ لم يستطعْ إعلانَ عَداوَتِه

للخَصِيِّين ، خَشيَةَ ثـورةِ الصَّقالِبـة ، بـل راحَ يُضَيِّقُ عليهما .

وتضايَقَ فائِقٌ وجؤذَرٌ من وطأةِ المُراقَبـة ، ولمّا كـانَ جؤذَرٌ يتمتّعُ بنفوذٍ كبيرٍ في القصـر ، وكـان الخليفـةُ هِشامٌ لا يستغنى عنه ، فقـد رأى الصَّقالِبـةُ أن يُقَـدِّمَ جؤذَرٌ استِقَالَتَه ، فإذا رفَـضَ الخليفـةُ قَبولَهـا ، وهـذا هو المُتَوقَّع ، فستُتاحُ له الفُرصةُ لإملاءِ شُروطِه .

وكتبَ جُؤذَرٌ استقالَته ، ورفعها إلى هِشام ، وعلِمَ ابـنُ أبـى عـامر بذلـك فسُرَّ ، فقـد جاءَتِ الفُرصـةُ للتّخلُّصِ من الصَّقالبة . دخَلَ على الأميرةِ صُبح ، أمِّ الخليفـةِ التـى كـانت سـببَ نِعمَتِـه ، وأقنَعَهـا بقَبـول الاستقالة ، فقبِلَ الخليفةُ « هِشام » الذى كان أُلعُوبَةً فى يدِ أمِّه وابنِ أبى عـامِر ، اسـتقالَةَ جُؤذَر ، فكـان ذلك إيذانًا بزوالِ سلطةِ الصَّقالبةِ فى القصر .

## ٢

تقدَّمَتْ راياتُ الفِرنج ، وأوغَلَت فى التَّقَدُّم ، حتّى أصبحتْ تُرى من حُصونِ قُرطُبة ، وبعثتْ قلعةٌ من القِلاعِ تطلبُ من العاصِمةِ العَون ، فأرسلَ إليها المُصحَفِيُّ حاجِبُ الدَّولة ، أن تقطَعَ سدَّ النَّهر ، لتحجُزَ العَدُوَّ عنها .

وعزمَ ابنُ أبى عامِرٍ أن يخرجَ للجهادِ بنفسِه ، وعُقِدَ مجلسُ الوزراء ، وقامَ ابنُ أبى عامرٍ يقول بضرورةِ الجهاد ، فوافَقَ الوُزراءُ على ذلك ، وعُرِضتْ قيادةُ الجُيوشِ على ابنِ أبى عامر ، فوافقَ على تَقَلُّدِها ، وقال :

ـ لا بأس ، على أن أختارَ من يخرُجُ معى من

الرِّجال ، وأتجَهَّزَ بمائةِ ألفِ دينار .

فصاحَ صائِح : « هذا كثير » .

فقال ابنُ أبى عامرٍ فى تحدّ :

ـ خُذْ ضِعفَها وامضِ لها ، وليَحسُنْ غَناؤُك .

فسكَتَ المُعترِض ، ولم ينبِس بكلِمة .

وتجَهَّزَتِ الجُيوش ، وخرجَ ابنُ أبى عامرٍ على رأسها ، لقتالِ الإفرنج ، الذينَ أطمَعَهُم فى الأندَلُسيِّينَ استِنامَتُهم ، وتخاذُلُ حُكّامِهم ، وأشعَلَ منظَرُ الجُندِ الخارجينَ للجِهادِ نارَ الحَماسَةِ فى الصُّدور ، فارتفعَتِ الهتافات ، وترقرَقتِ الدُّموعُ فى العُيون .

وانطَلَقَ ابنُ أبى عامِر ، وقد ثارتْ فى عُروقِه دماءُ أجدادِهِ الفُرسانِ الصَّنادِيد ، الذينَ أبلَوا أحسَنَ البَلاءِ فى فتحِ البِلاد ، مع طارِقِ بنِ زِياد .

٣

عادَ ابنُ أبى عامرٍ من غَزوتِه مُنتَصِرا ، يسوقُ أمامَه الأسرَى ، فخرَجَتْ قُرطُبَةُ لاستِقبالِه ، فقد أعادَ نصرُه الثّقَةَ إلى النُّفوس ، وشَجّعَه نصرُه أن يُفكّرَ في التّخَلُّصِ من المُصحَفِىّ ، ولكن كان ذلك صعبَ المَنال ، ما دامَ محمدٌ المُصحَفِىُّ يحكُمُ قُرطبة ، وأبناؤُه وأصهارُه منبَثّونَ في المَناصِبِ الهامّة . فقَرّ قرارُه على أن يُقَلِّمَ أظفارَ المُصحَفِىّ ، قبلَ أن يضرِبَ ضَربَتَه .

كان يعلمُ أن غالبا قائدَ الجيوش ، عدوُّ المُصحَفِىّ اللّدود ، فراحَ يتقَرّبُ من غالب ، وقد ساعَدَه خُروجُه للقتالِ على أن يكونَ بالقُربِ من غالِب ، فصارَ تنفِيذُ ما يجولُ بفكرِه أمرًا ميسورا .

انتصرَ ابنُ أبى عـامرٍ فـى غَزوَتـه الثانيـة ، ووقـف غالبٌ يودِّعُه فى عَودَتِه ، ويقـولُ لـه : سـيظهَرُ لـكَ بهذا الفَتح اسمٌ عظيم ، وذكـرٌ جليـل ، وسَيَشغَلُهم السُّرورُ به عن الخَوضِ فيما تُحدِثُه من قِصَّة ، فإيَّـاكَ أن تُغادِرَ قصرَ الخليفة ، حتى تعـزِلَ ابـنَ جعفـرٍ عـن المدينة ، وتتقلَّدها دونَه .

وفعلَ ابنُ أبى عامرٍ ما اتَّفقَ عليه مع غـالب ، فقـدْ عَزَلَ الخليفةُ محمدَ بنَ المُصحَفِىّ عـن إمـارةِ قُرطُبـة ، وولَّى إمارَتَها ابنَ أبـى عـامِر ، وكـانَ للأميرةِ صُبـحٍ الفضلُ فى ذلك .

أهَـمَّ المُصْحَفِـىَّ عـزْلُ ابنِـه ، وفكّـرَ فـى ابـنِ أبـى عامر ، فهالَه أمرُه ، وبدا لـه مُنافِسًا خطـيرا ، ففكَّـرَ فى تدعِيمِ مركَزِه ، بـالتَّقَرُّبِ من غـالِب ، وتكوينِ

جَبهَةٍ قَوِيَّـةٍ منهمـا . تقِـفُ فـى وجـهِ أطمـاعِ ابـنِ أبـى عامِرٍ . فقرَّرَ أن يخطُبَ أسماءَ بنتَ غالِب ، لابنِه عُثمان .

واجتَمَعَ المُصحَفِيُّ وأبناؤهُ بغـالِب ، وكُتِبَ العَقـدُ وحُدِّدَ يومُ الزِّفاف ، وعلِـمَ ابنُ أبـى عـامِرٍ بذلـك ، فتيقَّنَ أن هذه المُصاهَرة لو تمَّت ، لتعَـذَّرَ عليـه تنفيـذُ مآرِبه ، فكتَبَ إلى غالِبٍ يعرِضُ عليه فسخَ الخِطبـة ، وأن يُزَوِّجَه مـن أسمـاء ، فقبِـلَ غــالِب ، ولم يـتردَّدْ لحظة ، وكانتِ الصَّفعَةَ الثَّانِيَةَ التـى وجَّهها ابـنُ أبـى عامرٍ إلى المُصحَفِيّ .

٤

هانَ أمرُ المُصحفِيّ ، حتّى إنَّ ابنَ أبى عامرٍ نجح فى إثارةِ الأميرةِ صُبحٍ عليـه ، حتـى صـدَرَ الأمـرُ بإقالـةِ

جعفَرٍ المُصحفِـىّ ، وبـالقَبضِ عليـه وعلـى أبنائِـه وأصهـارِه . فبعـثَ ابـنُ أبـى عـامرٍ بـالجُندِ إليهـم ، وأمرهُم أن يَحبِسوا المُصحَفِىَّ فى المُطبَق بالزَّهراء .

واستفحَلَ أمرُ ابـن أبـى عـامر ، فـرأى أن يسـلُبَ هِشامًا السُّلطَة ، وهو الخليفةُ الضَّعيفُ المَشغُولُ عـن ملكِه بعباداتِه ، فوكلَ بأبوابِ قصرِ الزَّهراء ، رجـالا من أنصارِه ، يمنعونَ الوصُولَ إلى الخليفـةِ إلاَّ بإذنِـه ، وحَصَّنَ القَصْرَ بسورٍ ضخم ، وحفَرَ حولَـه خَندَقـا ، فأصبَحَ الوُصولُ إلى الخَليفةِ أمرًا عَسيرا .

وحَنِقَـتِ الأمـيرةُ صُبـح ، وزادَ فـى حَنَقِهـا أنهـا أصبحت لا تستطيعُ أن تفعلَ شيئا ، فانتصاراتُه علـى الإفرنـج حبَّبَتِ الشَّعبَ فيـه ، وجعلَت منـه رجـلاً خطيرا .

ورأت أنَّها أساءَت إلى ابنِها يومَ نحَّتْه عن الحُكم ، وجعلَته ينغمِرُ فى عباداتِه ، فأرادت أن تمحُوَ أثرَ ذلك . فعَزمَتْ على أن تنفُخَ فى ابنِها روحَ الثَّورةِ والتَّمرُّدِ على ابنِ أبى عامر ، ولكن هَيْهات ! فقد شبَّ هِشامٌ خائِرا ضَعِيفا ، لا يقوَى على الصُّمودِ أمامَ الأقوِياء .

٥

بدأ ابنُ أبى عامر بترتيب أمورِ الولاياتِ الإفريقِيَّة ، وأدخلَ فى الطَّاعةِ جميعَ أهلِها ، وجنَّدَ منهم الجُيوشَ الجرَّارة ، واستنفرَ أهلَ الأندَلُس ، وراحَ يَحُضُّهم على القِتال ، ويَشُنُّ الغاراتِ فى الصَّيف ، فما كان رجالُ إفريقِيَّة ، يتحمَّلونَ بردَ الأصقاعِ الشَّمالِيَّة .

وبثَّ الغاراتِ فى أطرافِ البلاد ، حتى أوقَعَ

الذُعرَ فيها جميعا ، وعادتِ النَّصرانيَّةُ على شفا خَطَرٍ عظيم . فقد راحت خُيولُ ابن أبى عامرٍ تجوسُ أماكنَ لم يخفُق فيها علمٌ إسلاميٌّ من قبل ، وسقطتْ مدينةُ سانت ياقُبَ من جلِيقِيَّة ، وهى أقدس معهد مسيحِيٍّ فى أسبانيا ، فى أيدى المسلمين .

لم يطمَعْ أحدٌ من ملوكِ الإسلام فى قصدِها ، ولا الوصولِ إليها ، لصعوبةِ مَدخَلِها وخُشونَةِ مكانِها ، وبُعدِ شُقَّتِها ، فخرجَ المنصورُ إليها من قرطبةَ غازيًا بالصائِفة ، سنةَ سَبعٍ وثمانينَ وثلاثِمائة ، وهى غَزوتُه الثامنةُ والأربعون .

كان ابنُ أبى عامرٍ قد أنشأ أسطولاً كبيرا بساحِلِ غربِ الأندلُس ، جهَّزَهُ برجالِه البحريِّين ، وصُنوفِ المُترجِّلين ، وحملَ فيه الأقواتَ والأطعمةَ والعُدَّة والأسلحة . وانطلقَ الأسطولُ إلى نهرِ دوبرة ،

فدخـلَ فـى النّهـر ، وأراد المنصـورُ أن يعـبُرَ إلى الأرض ، فجعلَ من الأسطولِ جِسرًا بقربِ الحِصن ، ووجّهَ ابنُ أبى عامرٍ ما كان فيه من المِيرةِ إلى الجُنـد ، وسارَ يُريدُ سانت ياقُب ، فقطَعَ أرضًا واسِعة ، وعبرَ عِدّةَ أنهار ، حتى إذا وصلَ إلى جبلٍ شـامخ ، شـديدِ الوُعُـورَة ، لا مَسـلَكَ فيـه ولا طريـق ، قَـدّمَ الفَعَلـةَ بالحديد ، لتوسِعةِ شِعابه وتسهيلِ مسالِكِه .

وعَبرَ العَسكَرُ الجبـل ، وانبسـطَ المسلمونَ فـى سهولٍ عريضة ، وظلُّوا يتقَدَّمونَ حتى انتهى العَسكرُ إلى جبلِ مَراسـيَة ، المُتّصِلِ مـن أكـثرِ جِهاتِـه بـالبحرِ المُحيط ، ثم نزلَ المسلمونَ على مدينةِ سانت ياقُب ، فوجدوهـا خاليـة مـن أهلِهـا ، فـأخذوا غَنائِمَهـا ، وهَدَمـوا مصانِعَهـا ، وأسـوارَها ، وأخـذُوا أجـراسَ الكنيسةِ الكُبرى ، وأجبَرَ ابنُ أبى عامرٍ الأسبانَ على

حملِها على ظُهورِهم ، من سانت ياقُبْ إلى قُرطُبة ، مسافَةَ ثمانِ مِائة كيلومتر ، وقد صنعَ منها قنادِيل ، عُلِّقَتْ بجامع قُرطبةَ العظيم .

٦

تمَّ لابنِ أبى عامرٍ الاستقلالُ بالمُلك ، والاستبدادُ بالأمر ، وبنى لنفسِه مدينةَ الزّاهِرة ، ونقَلَ إليها خزائِنَ الأموالِ والأسلِحة ، وقعدَ على سَريرِ المُلك ، وأمرَ أن يُحيّا بتحيَّةِ المُلوك ، وتَسمَّى بالحاجبِ المنصور ، ونفذتِ الكتبُ والمُخاطَباتُ والأوامرُ باسمِه ، وأمرَ بالدُّعاءِ له على المنابرِ باسمِه ، عقِبَ الدُّعاءِ للخليفة ؛ ومَحا رسمَ الخِلافةِ بالجُملة ، ولم يبقَ لهِشامِ المُؤيَّدِ من رسومِ الخلافةِ أكثرَ من الدُّعاءِ له

على المنابر ، وكَتَبِ اسمِه فى السَّكَّة ، وأُغفِلَ ديوانُه مما سِوى ذلك .

وصارَ المنصورُ يسهَرُ لتنامَ رَعِيَّته ، وفى ذات ليلةٍ دخلَ عليه مولاه ، بعدَ أن طالَ سهرُه وقال له :

- قد أفرطَ مَولانا فى السَّهَر ، وبَدَنُه يحتاجُ إلى أكثَرَ من هذا النَّوم ، وهو أعلمُ بما يُحرِّكُه عدمُ النَّوم من عِلَّةِ العَصب .

فقال المنصور :

- المَلِكُ لا ينامُ إلا إذا نامَتِ الرَّعِيَّة .

## ٧

كادَ الأَمَلُ ينقَطِع من بقاءِ النَّصرانِيَّةِ فى إسبانيا ، فقد غزا المنصورُ سِتًّا وخمسِينَ غَزوة ، لم تُنكَّسْ له

فيها راية ، ولا انهزمَ لـه فيها جيش . ورأى مُلوكُ النَّصارى هذا الخَطرَ الدَّاهِم ، فاتّحدَ أصحـابُ لِيونَ ونابارَ وقَشتالَة ، وسائِرِ المُقاطَعاتِ المَسيحيَّة ، ونبَذوا كلَّ ما كان بينَهم من خِلاف ، وساروا عُصبةً واحِدة . وتسلَّحَ الأساقِفةُ والقِسّيسُون ، وسارُوا في مُقَدّمةِ الجُيوش ، واجتمعَتْ جُيوشٌ جَرّارةٌ من المسيحيّين ، على حدودِ قَشتالَة القديمة .

وجَمعَ المنصورُ جيوشَه ، وخرجَ يحملُ أكفانَه ، التي كان يحملُها معه كلما خرجَ للجهاد ، والصُّرَّةَ الكبيرةَ التي جمعَها الخَدمُ ممّا علِقَ بوجهِه وثيابِه من الغُبارِ في غَزَواتِه المُظَفّرة ، التي نَيّفت على الخمسين .

والتقَى الجَيشان ، وسالتِ الدِّماء ، وانتصَرَ المنصور . ولكنّه أحسَّ المَرضَ يدِبُّ في أوصالِه ، واشتدَّ مَرَضُه ، حتى لم يستطِع أن يعتَلِيَ صَهوَةَ

جوادِهِ ، فصُنِعَ لـه سَريرٌ من خشب ، رقَدَ فيه ، وحُمِلَ على أعناقِ الرِّجال .

وقفِلَ الجيشُ عائِدًا يبغى الوُصولَ إلى قُرطبة ، ولكنْ وَطأةُ المَرضِ اشتدَّتْ على المنصورِ قبلَ أن يبلُغَها ، فأنزَلُوه مدينةَ سالِم . وفكَّرَ فى أمرِ قُرطبة ، فأهَمَّهُ أمرُها ، فبعثَ إلى ابنِه عبدِ الملِك ، يستَدعِيه ويُوصِيه بها .

ودخلَ ابنُه عليهِ ، وارتَمى على صدرِه وأخذَ يبكِى ، فقال له المنصورُ فى صوتٍ ضعيف :

ـ هذا أوَّلُ الإخفاق .

ومات المنصور ، فأقبَلتِ الفِتَن يَجُرُّ بعضُها بعضا .